ورق برائحة الورد

وقف يستقبل العزاء بابتسامة باردة منكسرة، هذا هو تعبيره عن الألم، كان الجميع في السرادق الفخم يتغامزون من حوله: هل رأيتم ابتسامته! لقد أصبح بارداً.. غلفته أوروبا بجليدها الأبيض.. لا يشعر بالحزن على والده.. لقد علمته الغربة القسوة البالغة.

شعر بالتعب، جلس، طلب من الجرسون الذي يتحرك بسرعة مذهلة في السرادق كوباً من الليمون البارد، انصرف الجرسون متعجباً! أسند رأسه إلى الخلف، أغمض عينيه، استدعى النوم ولو للحظات برجاء العاشق الولهان، ولكن هيهات أن ينام وسط هذا الزحام الهائل، رحل النوم ولكنه لم يفتح عينيه، أطلق لذاكرته العنان وكأنه لم يجلس وحيداً منفرداً منذ زمن طويل، موت والده المفاجئ أثار في نفسه الكثير من الشجن، كان متعلقاً به رغم أنه عانى كثيراً من انفصاله عن والدته وهو في العاشرة من عمره، قال له والده يومها: عندما تكبر ستعرف لماذا هجرت البيت وهجرتك.. ستعرف كم أعاني.. لابد أن يأتي اليوم الذي تدرك فيه الحقائق.

تذكـر والدتـه، امـرأة قوية وجميلة، سيدة أعمال من طراز نادر، استطاعت بأمـوال والـده أن تصـنع مـن محـل الأزهـار الـذي تمتلكه إمـبراطورية لهـا فـروعها في كل مكان، كانت تعشق طموحها الجامح أكثر من عشقها لأي شيء آخر، وكان لها ما أرادت دوماً.

عـندما كـان في بدايـة الشباب، كان يقف معها في محل أزهارها، علمـه الـتعامل مـع الأزهار الرقة والنعومة، تعلم فن الابتسامة، فمن يعـرف الأزهـار لا يعـرف الحـزن، لا تفارقـه الابتسـامة طوال اليوم، فالزهرة كائن تبتسم حين تلمسه، رغم أنه يموت بين يديك.

عـالم والدتـه كـان عالماً مُحاطاً بالمجاملات والابتسامات الملونة، عالمـاً ورديـاً بلـون أزهارها، كانـت امرأة مسيطرة، حين كبر أدرك أن هذه السيطرة كانت سبب الانفصال.

تـرك والـده البـيت وأقـام في مكـان آخر، لم يشغل والدته طلب الطـلاق، انغمسـت في عالمهـا السـاحر، أحاطـت نفسـها بالأزهـار والخضرة، عزلها هذا السياج الوردي تماماً عن العالم الآخر، ودون أن تشـعر عـزلها حتـى عـن وحيدها، كان محاطاً بها، ولكن الاهتمام لا يعني أبداً ـ بالنسبة له ـ الحب.

كانـت أمـه تعاملـه بـرقة متناهية، وكأنه زهرة صغيرة تخاف على

أوراقها من الهواء، حين قرر له والده أن يدرس هندسة الميكانيكا لكي يديـر مصـانعه، رفضـت أمه، قالت بتحدٍ وهي تشعل سيجارتها برقة بالغـة: لا.. إنهـا كلـية عملـية للغاية.. ستقتل في ابني الرقيق روح الإبداع.

ثار والده، هدد بأنه لن ينفق عليه إلا إذا درس الهندسة، عارضته الأم، كانـت تعشـق المعارضـة، وجهـت كلامهـا إلى الأب وفي يـدها سـيجارتها الـتي لا تفارقهـا: دع الـولد يفعـل ما يحب.. لا تمل عليه أفكـارك الحمقـاء.. لا أريـده أن يكون مثلك.. حياتك أوراق. لها تحـيا ومن أجلها وجدت.. أريد أن تعرف أمراً مهماً.. ما بينك وبين وحـيدك جسر من ورق.. وحيدك رجل من ورق أخضر ولكن ورق برائحة الورد.

مـا زال يذكر كلمات أبيه لها: هذا الورق صنع لك أحلامك.. منحتك أوراقي لأنني أحببتك.. وكما كرهتك كرهت كل النساء.. وكما صنعت أحلامك سأصنع أحلامي.

استجاب لوالده رغم كرهه الشديد للهندسة وفروعها، استجاب له فقط لأنه يحبه، لأنه أراد أن يحقق له حلمه، سافر إلى أمريكا لدراسة الهندسة، حاول جاهداً أن يحبها، ولكنه فشل في تقبلها، كان لا يتقبل

إلا ما يحب، درس الإخراج السينمائي، كان يرى في هذا العالم سحراً لا يُقاوم، انتقل من عالم الأوراق إلى حياة السينما الصاخبة، كان عالماً جديداً مختلفاً ولكنه كان يحبه، بعد فترة، أصبح جزءاً من هذا العالم الذي عاشه بكل تناقضاته، تعلم حياة الأضواء الصاخبة، تعلم أن يتصنع في أحاسيسه، أن يُظهر عكس ما يبطن، أن يضحك حين يشعر بالألم، وأن يبكي وقت الفرح، عاش عكس حقيقته، ورغم انغماسه في هذا العالم، فإن ابتسامة الأزهار لم تفارق وجهه أبداً.

اشتعل قلبه بالحب أكثر من مرة ولكنه تزوج مرة واحدة، تزوج من صاحبة أجمل ابتسامة رآها على الإطلاق، شعر إنها الشيء الوحيد الصادق في حياته الزائفة، تزوجها رغم معارضة والدته، التي كانت تريد له زواجاً يضيف إليها أزهاراً، ويضيف إلى أبيه أوراقاً، لكنه أصر عليها.

في بداية الطريق أنجبت له " وحيد "، أصر على هذا الاسم، رأى أنه يُعَبِّر عنه، في منتصف الطريق رآها امرأة مُصرة على رأيها، مسيطرة، مثل أمه تماماً، رغم أنها في واقع الأمر كانت بعيدة كل البعد عن أمه، ولكنه لم يستطع أن يمنع هذا الإحساس من السيطرة عليه، وكان الانفصال في النهاية، ما زال يتذكر كلماتها الأخيرة: أنت مثل

ورقـة في مهب الريح . . تتأثر بكل شيء حولك . . ليس لك شخصية محـددة . . أو طـريق ثابت . . كل يوم في مكان مختلف . . بل كل لحظة في موقع آخر . . لم تكن معي أبداً .

تـألم كـثيراً مـن الطلاق ، تألم من أجل وحيده ، لا يريد له المصير المشـتت نفسـه الـذي عاشـه ، بدأ يشعر أنه مُسير لا مُخير ، حين أصر علـى الطـلاق لم يكـن يـرغب حقاً في حدوثه ، ولكنه حدث ، وحين حـدث أرسلت إليه أمه أزهاراً ، وأرسل إليه والده أموالاً لكي تساعده على الاستجمام .

انخـرط في عمله ، أنتج فيلماً كبيراً تكلف الكثير ، حقق له النجاح والشـهرة ، فتح له الأبواب التي كان يحلم بها ، والتي من أجلها اقتحم هـذا العـالم السـاحر ، لقـد حقـق لـه هـذا الـنجاح المـزيد من النقود والأزهار ، نجح في عمله لأنه تعلم من أمه وأبيه أن يعشق عمله إلى حد العـبادة ، لكـنه فشل في حياته الخاصة ، لأنه لم يتعلم أن تكون له حياة خاصة يحترمها ، عاش مشتتاً بين أم تعشق نفسها وأب رافض لها رغم أنه يحبها ، لم يعرف معنى الاستقرار ، ولذلك لم يمنحه لوحيده .

لم يكـرر تجـربة الـزواج ، كان يشعر بأن الفشل سيلازمه دوماً في هـذه التجـربة بالذات ، أدرك تماماً أنه لن ينجح يوماً في تكوين أسرة ،

لن يعطي ما فقده طوال رحلته.

حاول أن يبحث عن طريق له ملامح أخرى، شعر بالاشتياق لأبيه، كان يرى أنه يسير الخطوات نفسها ولكن في زمن آخر، حين قرر العودة لرؤية أبيه كان قد رحل.

فتح عينيه، ما زال في السرادق الفخم، ينتظر كوب الليمون البارد.